التصوف والتعايش

د. بن دوبه شريف الدين

جامعة سعيدة

ملخص:

التعاطي مع التصوف بخلفية اكسيولوجية ينم عن قصدية مبيته في اقصاءه من أنماط المعرفة البشرية، لان حصره في التجربة الحدسية الوجدانية اقرار بعجزه عن بلوغه التجريد النظري، والموضوعية المطلوبة في الأنساق المعرفية، ولكن الموضوعية تقر بان التصوف تجربة سلوكية نابعة عن قناعة واعتقاد معرفي، فهي مسار سلوكي يقوم به الفرد في التعامل مع المواقف الحياتية، وعليه فإن التصوف سلوك يتضمن قيما اخلاقية راقية تجسد البعد الانساني، ومستوى الارتقاء الاخلاقي عند الفرد.

الكلمات المفتاحية:

التصوف، القيم الأخلاقية، التزكية، التحلية، التربية الاجتماعية.

Abstract

Sufism is a cognitive and moral pattern that humanity has known throughout its history, so every religion includes some form of mysticism, and what is important in Sufism is this moral experience that the seeker lives for the truth because working on ethics is the basis of coexistence. between individuals, therefore the cognitive aspect does not represent the stage of human development. This research aims to read Sufism from the angle of the act of producing coexistence between individuals.

Keywords

Sufism, coexistence, individuals, humanity; philosophy

توطئة:

يشكّل تاريخ المدرسة الصوفية مرجعاً رئيسا لمسألة التباين الدلالي لمصطلح التصوف، إذ عايشت في مسارها الوجودي كثيرا من اللحظات العسيرة، إذ لم تمرّ منذ ظهورها دون أن تطرح خلفها في كل محطة تاريخية جدلا أو إشكالا، ودون أن تصبح محور صراع عنيف.. وقد كان حقل الأشكلة للظاهرة الصوفية شاملا لنظام المفاهيم وبنية التصورات، إذ لم يعرف مفهوم التصوف إجماعا بين رجال التصوف أنفسهم، ولا كانت الطرق السلوكية، وآداب المريد محور اتفاق بينهم، وممّا زاد في حدّة الأشكلة طبيعة اللغة الصوفية نفسها، فكان من الحتمي أن وقع التصوف بين مريد وبين رافض، والمحكّ الذي يضع المواقف الرافضة في موقع تراجعي هو فلسفة المدرسة التربوية، والتي أثبتت جدارتها في الارتقاء بالمرء إلى المراتب العليا، والتي تعكس بحق مراتب التكريم الإلهي.

مفهوم التصوف:

كان مفهوم التصوف من المحطات الإشكالية في تاريخ التوجه الفكري، وتوصيفه بالخصوصية الزئبقية لا يجانب الحقيقة، فهو عند أهله: الحكمة عينها والتي عبر عنها في الاغريقية بلفظ " صوفيا"، التي تشكل الفلسفة كمحبة لها ركن من أركان التقعيد الدلالي لها، فمحبة الحكمة والتعلق بها تمثل السبيل الأوحد لبلوغ المراتب الربانية، والذي نجده في تعريف الفلسفة عند الكندي:" علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان لان

غرض الفيلسوف في علمه اصابة الحق وفي عمله العمل بالحق، لا الفعل سرمدا، ويتصرم الفعل إذا انتهينا الى الحق [1]" .

وعند اخوان الصـــفا يكون الارتقاء بالأفعال تتويجا للمعرفة النظرية او الحكمة، وهذا ما يلمس في تعريفهم للحكمة صـوفيا:" الفلسـفة أولها محبة العلوم، واوسـطها معرفة حقائق الموجودات بحسـب الطاقة الانسـانية، واخرها القول والعمل بما يوافق العلم"[2]

ونجد الربط بين التصـــوف والحكمة "صـــوفيا " عند البعض من مؤرخي المدرســـة، وينســـب هذا الرأي إلى الفيلسـوف البيروني:".. إن من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقي للعلة الأولى فقط لاسـتغنائها بذاتها.. والحق هو الواحد الأول فقط، وهذا رأي السـوفية، وهم الحكماء.. و"سـوف" باليونانية الحكمة.."1"، والحكمة المقصـودة عند المدرسـة ليست الفضـاء النظري الخالص، بل هي العمل والممارسـة أو ما يمكن الاصـطلاح عليه بالحكمة العملية وعلى رأسها الأخلاق، يقول النوري (295هـــ):" ليس التصوف برسوم ولا علوم، ولكنها أخلاق "2، و عند البعض الآخر مظهرا من مظاهر الخرافة والشرك.

وفي الحقيقة نجد أن الاعتقاد في دلالة معينة هو تأســـيس لموقف، وانتقاء دلالة هو في حد ذاته موقف، ويكون أيضـــا بنية في موقف، والتباين القائم بين المدارس الفكرية راجع في الأصـــل إلى اختلاف البنية الابستيمية لها، والتي تكون نتاجا للمفاهيم والتصورات المشكلة للنسق المعرفي، فالتعاطي مع المصطلح تعبير ضمني عن رؤية وتوجه فكري، فالكلمات مجرد مكنونات تكشف عن طبيعة الذات.

التعريفات المتعددة للتصـوف تتفق على إضـفاء الطابع الأخلاقي عليه، والمرجعية في ذلك ترجع إلى جوهر التصوف ، الذي هو طريقة سلوكية بالأصالة قوامها التقشف والزهد، والتخلي عن الرذائل، والتحلي بالفضائل، لتزكو النفس وتســـمو الروح.. فهو تعبير عن تجربة أخلاقية، والتعريف التالي يؤكد ذلك: التصـــوف بذل المجهود في طلب المقصـــود، والأنس بالمعبود، وترك الاشـــتغال بالمفقود..3، ويقول أبو بكر الكتاني (233 هـ): "التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الصفاء4 " و عند الكرخي: " الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق ".

التداخل العضـوي بين الأخلاق والتربية في المدرسـة الصـوفية مسـألة لا تحتاج إلى بيان، وعليه فان البحث عن آليات لتحقيق القيم الأخلاقية يكون لازمة منطقية عند رواد المدرســة، لأن النظرة الفوقية لمنظومة القيم، والتي تضـــع القيم الأخلاقية وتصـــنيفها في فضـــاء متعالي عن الأفراد يفقدها الفاعلية والغاية التي من أجلها وجدت، والتربية كعملية تعليمية تقع بين الوجود النظري للقيم وبين ممارســـتها، كما أن التنوع الحاصـــل في التصوف يعود إلى تعدّد المسالك التربوية، فهي طريقة تربوية قبل أن تكون مدرسة نسقية ونمطية.

التصوف والتربية:

يظهر البعد التربوي الأخلاقي للتصـــوف في الإيحاء الأول للكلمة، والتالي لوقع اللفظ في الســـمع، فهو من خلال رسمه اللغوي يشير إلى أنه اسم مؤسّس على فعل لغوي يعيش داخل زمن نحوي مفعم بالحركة، مقابلا

[1] الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمد عبد الهادي ابوريده، دار الفكر العربي القاهرة 1950 ص:97
2 مؤسسة هنداوي، مصر، ص:63 اخوان الصفا، رسائل اخوان الصفا،

الاسم الذي يطبع بسمات السكونية، فهو ممارسة يسعى المرء من خلالها بلوغ غاية معينة، تتمثل في اكتساب شيء أو خلق معين، فهي مدرسة عملية، تسعى بالدرجة الأولى إلى تربية البشر، وتأهيلهم لمبدأ استحقاق الخلافة، وما يؤكد ذلك أيضا التسمية التي يتعارف عليها الكثير من الشرائح الاجتماعية والفكرية **بالطُرقية**، أي المدرسة التي تنهج طرقا متعددة، أو المدرسة التي تكون الطرق المتعددة عنوانا لها، فهي تجربة شخصية ومعرفة وجدانية ومعايشة للحقيقة، وعلى هذا الأساس تتعدد، فالطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، وهو مبدأ متعارف عليه في التراث الإسلامي، وهو المبرّر الذي وجدناه كافيا للبحث عن الغايات والمقاصد التي تقوم عليها هذه المدرسة من خلال الآليات التعليمية أو الطريقة التربوية التي تكون المحدِّد أو المَعْلم الموضوعي الذي ينبغي تأسيس الحكم عليه في تقييم المدارس الصوفية. تنطلق الرؤية التربوية الصوفية من معالم رئيسة، تشترك فيها جميع الفرق الصوفية، وهي:

الرؤية التوحيدية للكون:

المدخل الرئيس في فهم المبادئ والمسلمات التي تقوم عليها المدارس الفكرية هو النظر إلى موقع الطبيعة في فلسفة المدرسة، فمن خلالها يمكن قراءة المنطوق و اللامنطوق فيها، و الكون أو الوجود في ابيستيمية المدرسة الصوفية يتقاطع مع موقفها من الإنسان، فطبيعة الكون المادية ليست إلا مدخلا وأداة لبلوغ الآخرة، فهي مزرعة الآخرة، فالوجود الطبيعي عند المتصوّف وجد من أجل الإنسان، وليس العكس، فهي الأرضية اللازمة لبلوغ شمس الحقيقة، وهي كلها حكمة ــ كما يقول القطب عبد القادر الجيلاني ــ وعمل الآخرة كلها قدرة ، فهذه مبنية على الحكمة وتلك مبنية على القدرة، فلا تترك عمل في دار الحكمة، ولا تعجز قدرته في دار القدرة [5].

البعد الايتيقي للنظرة الكونية عند المتصوفة، ظاهر في لغة أقطاب هذا الفن، وإن كان الرمز هو السمة العامة التي تتصف بها الأنساق الصوفية، فالدنيا أو الوجود ليس إلا وسيلة لبلوغ القرب الإلهي، يقول تعالى :"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ[6] ".

إلهية الذات:

توحي القراءة السطحية للفكر الصوفي، والممارسات الصوفية أن موقع الذات في رؤيتهم النظرية يتقاطع مع فلسفة الكنيسة في موضوع النظر، على قاعدة الاشتراك القائم بينهما في النظر إلى الذات بعين التعلّق الطبيعي والأصيل مع عالم الشهوات، ويصبح الزهد صورة إسلامية مستنسخة لمعنى الرهبنة المسيحية، ولكن المرجعية المسيحية في رؤيتها إلى الذات تختلف جوهريا مع الأسس المعتمدة في التصوف الإسلامي، إذ تكون الخطيئة عندهم هي الأصل في الدافع والتوجه نحو الأفعال، أما الممارسة الصوفية في التراث الإسلامي فتنطلق من مسلمة الصفاء أي اعتبار الفطرة جبلة رئيسية في الإنسان، وأمر تكويني، أي أنها أصيلة في الإنسان، وليست مكتسبة ، وأقرب إلى الوعي..أي أن في الإنسان مجموعة من القضايا الفطرية، وهو عالم بوجودها فيه.[7]

" الإنسان خير بطبيعته" من القضايا الفطرية التي تشكل بنية الفطرة في فلسفة المدرسة، فهو الكائن الأوحد المؤهل للتعالي في المراتب الكمالية، فبالعقل وبقدرة الروح أمام قوة الشهوة يستطيع منافسة الملائكة في مقاماتهم العلوية، والخيرية أصيلة فيه، أما النزوع نحو الشر فهي صفة عرضية ناتجة عن تنشئة اجتماعية، وأعتقد أن هذا المبدأ مائز أساس للتصوف الإسلامي عن الثقافة المسيحية، كما نجد عند رواد المدرسة تفرقة مفاهيمية بين الروح والنفس، فالنفس نتاج للأفعال الصادرة عن المرء، أما الروح فهي قبس الهي، ومتعالية عن الطبيعة النفسية، وفي حالة ارتباط دائم بالأمر الإلهي، أما موت الروح فليس إلا تعبيرا مجازيا عن سيطرة النفس البهيمية على الذات البشرية، ونجد في الأثر الإسلامي الكثير من الحكم التي تؤكد المنحى الروحي والأخلاقي في التصوف، مثل : "من عرف نفسه عرف ربّه " و" العبودية حقيقة جوهرها الربوبية "، أي أن روح العبودية لله هي سيادة المرء لنفسه أي أن يصبح ربًّا لها، فالتبعية للنفس والشهوات أي العبودية للنفس مدخلا للهلاك ، فـ " من تزين بزائل فهو مغرور "[8] فالخطوة الأولى لحصول القرب الإلهي هي المعرفة، وتلك هي الحكمة التي تعكّر صفو الحياة عند المريد الصوفي، وهي التي تحدّد أيضا المراتب والمقامات المتنافس حولها، فمعرفة الذات من خلال الإقبال على الحكمة النظرية يكون غير كاف لبلوغ المرام لأن فضاء التجربة النظرية يقف عند فهم العلائق المشتركة بين عناصر الكون، أما المحك الحقيقي للوعي، فهو الممارسة والمكابدة، وعليه فالذات عند رواد المدرسة ذات دلالة روحية، تتحدد من خلال اعتبار الذات جزء من النور الإلهي الآخر، أو قبس رحماني، يقول الشيخ الرئيس ابن سينا في عينيته:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ وَرْقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنُّعِ
مَحْجُوبَةٌ عَنْ مُقْلَةِ كُلِّ عَارِفٍ وَهْيَ الَّتِي سَفَرَتْ وَلَمْ تَتَبَرْقَعِ
وَصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ إِلَيْكَ وَرُبَّمَا كَرِهَتْ فِرَاقَكَ وَهْيَ ذَاتُ تَفَجُّعِ

ويعتقد الصوفية أن التعدّد الذي يطبع الذات في شتّى صورها: أنا أو أنت، هو ..هي .. ليس إلا مظهرا من مظاهر التوحيد، فهي آية من آيات الله، فالكل يستبطن الروح الإلهي، وعليه فالرؤية الواجبة الحصول في عرف الصوفي هي اعتبار الغير تجلٍّ وآية من آيات المحبوب، فكل ما يكون أمام الإنسان ـ كما يرى ايكارت ـــ متكثرا من الناحية الخارجية فهو في الحقيقة واحد، وجميع الأوراق الحشائش، والأشجار، وجميع الأشياء واحدة، تلك هي الأعماق البعيدة.[9]

فالذات الموضوعي والمستقل عن الذات الفردي ليس مطيّة لبلوغ المآرب الذاتية، بل هو جزء أو بنية في وحدة كونية متكاملة تعكس عظمة الحنان المنان، والتباين القائم في النظرات راجع إلى الارتباط الموجود بين عالم الأرض، والابتعاد عن سنن السماء، فسلطة الذات توجب عالما سماويا وملكوتيا حاول "الحلاج" تهيئة أرضيته اصطلح عليه بـ " دولة الروح ".

فلسفة الزهد:

يعتبر الدافع أو الحافز من القواسم المشتركة بين المدارس التربوية، في تفسير عملية التربية والتعليم، وبدونه تصبح العملية التربوية مجرّد عبث، و في المدرسة الصوفية قاعدة ضرورية للمتعلم أو المريد، وإذا كان الدافع في النظريات الغربية يتأسّس على الرغبة في الامتلاك أو الحيازة، فإن الدافع في الرؤية الصوفية يكون

بالتنازل عن الرغبة في الامتلاك أي الزهد الذي هو عزوف النفس عن الدنيا وانزوائها عنها طوعا مع القدرة عليها، واصله العلم والنور الذي يشرق في القلب حتى ينشرح ويتضح به أن الآخرة خير وأبقى، وثمرته فهي القناعة من الدنيا بقدر الضرورة إلا بقدر زاد الراكب، وموقع التقشف والزهد في الأساليب التربوية عند مشايخ الصوفية مهم في تهيئة المريدين لبلوغ المقامات الربانية، فهو مدخل ضروري للارتقاء بالذات إلى مستوى البشرية بالفعل، فالقدرة على التحكّم في النفس يمنح الأهلية للمرء في بلوغ مرتبة العبودية الحقة، وهي الغاية التي أعلنها الشرع للخلق ألا وهي العبادة : " ومَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ" [10]

ومن الحكم المأثورة في هذه المدارس، والتي تتكرر في كثير من التجارب الصوفية التربوية التأكيد على قول النبي الأكرم :" حب الدنيا رأس كل خطيئة"، فالنظر إلى الدنيا بعين الرغبة، بداية الانحراف الفكري والسلوكي، فالحب أو التعلق بالوجود الطبيعي مدخلا للرذائل، فأهل التصوف على حد تعبير النبهاني أهل مكارم الأخلاق وهم من أسقطوا الياءات الثلاث فلا يقولون لي ولا عندي ولا متاعي أي لا يضيفون إلى أنفسهم شيئا، أي لا ملك لهم دون خلق الله فهم فيما بين أيديهم على السواء مع جميع ما سوى الله[11] وقد ورد أيضا عن أمير المؤمنين الإمام علي كرم الله وجهه : " الدنيا إذا أبصرت إليها أعمتك، وإذا أبصرت بها بصّرتك "

فحقيقة الدنيا عند أمير الصوفية هي سفينة السفر، وليست منزلا للاستقرار، فالحياة الدنيا تحمل وجهين، الوجه الأول إغرائي يتمثل في إيقاع الفرد في موقع المحك أمام قوة الشهوة التي تمثل جزءا من الطبيعة البشرية، والوجه الثاني تكون فيه وسيلة للتقرب إلى الله من خلال العمل الصالح، ويمثل الشيخ محي الدين بن عربي علاقة الصوفي بالدنيا بالتمثيل التالي :" رجل صرف وجهه للشمس فرجع ظله خلفه، فقصد الشمس، فاتبعه ظله ولم يلحقه ولا نال منه إلا ما حصل تحت قدميه ..ثم هذا الرجل إن اقبل بوجهه على ظله واستدبر الشمس وجرى ليلحق ظله فلا هو لحق الظل وقد فاته حظه من الشمس ..وما لحق من الظل إلا ما تحت قدميه، وهو الحاصل له في استدباره الظل..فأنت ذلك الرجل والشمس وجود الحق والظل الدنيا وما حصل تحت قدميك القوت الذي لابد منه"[12]

الجهاد الأكبر:

قصة التفرقة بين الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر من الطرائف النبوية، والتي وضعت الفكر أو المخيال الإسلامي أمام هزة ابيستيمية، وأخلاقية، كانت من وراء ميلاد الفرق الإسلامية، فالفيصل بينها هو الأخلاق وليس في القدرة على الحجاج، وإذا كانت العلاقة بين العلامة والمعنى مجرد تعسُّف أو تحكُّم تقيمها المؤسّسة اللغوية في الاصطلاح على المعاني، فإن العلاقة بين توصيف مقاومة النفس بالجهاد الأكبر ليس مجرد اعتباط أو ضرورة تحكم المعنى من حيث الإيقاع ومن حيث الفونيم، بل هو دليل على خطورة الأمر، فالحرب على النفس، أو مقاومة أساليب النفس يحتاج من نفس النفس إبداع هذه الآليات، والتوفيق بين النفس في صورتيها المتناقضة من المفارقات الإنسانية، فهناك اساليب عدة للمجاهدة ومنها قطع العادات المتمكنة ن النفس ..ثم الدوام على الرياضة وأصولها الجوع والصمت والسهر الخلوة ..[13]

إذا أراد السالك بلوغ المعرفة والحكمة، وتجاوز هذه المفارقات، فعليه مقاومة الحب أو رابطة التعلق بالحياة الدنيا، والذي يربطه بعالم المادة، عالم المتغيرات، فمن أراد سلوك طريقا الحق فليهذب نفسه قبل سلوكه ،

يداوم المجاهدات تنفتح عيناها وينطبق لسانها[14]، وعلى هذا الأساس وجدت في الطرق الصوفية بعض الملامح التي اشترك فيها مع بعض المدارس الدينية والوضعية وسيلة قاعدية لتحقيق الغايات التربوية، والتي من أهمها الارتقاء والحصول على مرتبة القرب من الله.، والمفاهيم الخلقية التي تقرر بأخلاقية المبدأ التربوي هي:"..التخلية قبل التحلية، ويعنون بذلك تخلية الذات من الرذائل، و تحليتها بالفضائل، فالعمل على تزكية الأنفس، وتطهير القلب إصلاحه من ما قد يصيبه من الأمراض والعلل والأدواء..[15]

التعالي على عالم الحس أو الدنيا يقوم على مرجعية فكرية تتميز بها الصوفية، وهي مبدأ جوهرية الروح، وهي المجال الرئيس الذي تستقطبه التربية الصوفية، لأنها قوام الشخصية الإنسانية، والمبدأ السببي لجميع أشكال السلوك، فتربية الملكات الفطرية في الإنسان كفرد هي الفعل الذي يهدف الصوفي من وراءه إلى تأهيل المريد للحياة الاجتماعية، والارتقاء به من مستوى السوائم إلى مرتبة الإنسان، لأن ازدواجية الطبيعة البشرية تشدّ الإنسان من خلال بنيته المادية نحو عالم المادة، وتعلق روحه مع عالم الملكوت، فهو الوحيد الذي يستطيع بروحه وعقله التسامي والتعالي على الملائكة، أما التقوقع داخل الذات أو الأنا فهو ارتباط بالطبيعة المادية في الحياة، والخطاب الصوفي كما يذهب الأستاذ فيدوح16: أراد أن يتوغل بالوعي الإنساني نحو أعمق معاني السمو على تفاهة الحياة وماديتها وحطتها، وان يخلص" الأنا" من سجنه ويخرجه من هشاشة الواقع، ويحلق به في سموات المطلق غير المتناهي، بغية تجديد النبض الروحي، وارتقاء أعلى درجات الصعود نحو المتعالي..17.

التعايش في التربية الصوفية :

يتضمن التعايش جميع القيم الأخلاقية، من عفو، ورحمة، وكرامة، وعيش مشترك فمنذ إعلان أوزيرس في أساطير مصر القديمة تهذيب شعوب الأرض على التمدن بالوسائل السلمية، ومرورا بدعوة بوذا في الحضارة الهندية قائلا: "إن من يعلن الحقيقة..لا يهاجم أي إنسان في العالم".. إلى التزام سقراط بقوانين الدولة التي أشرفت على محاكمته، و تعريف أرسطو لمفهوم السعادة باعتبارها مشاركة الآخرين في الخير..إلى وصية السيد المسيح في خطبة الجبل، ورسالة الإسلام في الصفح الجميل والمعاملات بالحسنى من خلال ثقافة الصلح واحترام الأخر.. إلى التنوير الحديث الذي أنتصر إلى أفكار فولتير وجون لوك و روسو و مونتسكيو.. إلى قيم العيش المشترك في الفلسفة المعاصرة، وتاريخ الفكر الإسلامي يؤكّد طبيعة التنوع الخلافي الذي ميّز مسار المواقف الفكرية والمدارس الكلامية، إذ مارست هذه المدارس ضد بعضها البعض، سلطة الإرهاب الفكري والسياسي، بجميع أشكاله، وشتى صوره، من سلطة السياسة إلى سلطة المعرفة، فغاب السلم المدني في المجتمع الإسلامي.

يعتقد البعض أن البحث عن فلسفة للسلم داخل النظرية التربوية الصوفية شبيه بالبحث عن قبعة سوداء داخل غرفة مظلمة، ويعني ذلك أن السلم كمفهوم مدني، وسياسي غريب عن نظرية التصوف، فهو تجربة شخصية محضة في ممارسة القيم، وانطواء في عالم داخلي ينشئه المتصوف بقوة الوهم التي يملكها، ومصطلح الانقطاع عند المتصوفة في نظرهم يظهر هذا الغياب، وما يصل إليه المريد في مجال التصوف هو مجرد لحظة يعيش فيها الانقطاع مع الآخر، وفلسفة الخلوة جغرافيا ونفسيا تؤكّد في نظرهم مسألة النفور التي

يستبطنها المتصوف، وعلى هذا الأساس نجد أنفسهم مضطرين لوضع مجموعة من المقدمات لإثبات المنحى السلمي التعايشي في فلسفة التربية الصوفية، وهي كالتالي :

السلم والتعايش والإسلام:

قطعية الدلالة داخل النص المقدّس تفصل في كثير من الاختلافات، والنص التالي يشير إلى ارتباط السلم بالإسلام، يقول تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ 18." .

يتفق أغلب المفسرين على أن السلم في الآية هو الإسلام، وهذا يبين أن اعتناق الإسلام كدين هو الولوج في عالم السلم، والتلازم الدلالي بين المصطلحين مسألة قائمة، فالسلم مدخل إلى الإسلام والعكس صحيح، والدخول في الحرب خروج من الإسلام نفسه، وتؤكّد الآية الكريمة بوجوب هذا الاقتران فعدم الأخذ بالسلم أو بالإسلام كاملاً هو نوعً من إتباع الشيطان، فالتقاطع إذن الموجود بين الدلالتين " السلم والإسلام " يضفي الشرعية على كل طريقة في الإسلام تدّعي قول الحق، أو بلغة علماء الكلام الفرقة الناجية، فيكون السلام أو الإسلام هو حبل الله : " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"19، وإذا كان الإسلام دين المسلمين جميعا، وليس دينا لفرقة ناجية بعينها تكون قد حدّدت لنفسها معالم نجاتها، وهذا الملمح يكون قاسما مشتركا بين جميع الفرق الإسلامية كما أعتقد، والصوفية الإسلامية عينة من التدين الإسلامي، والإقرار بإقصائها يستلزم إقصاء جميع الفرق الإسلامية، وبالتالي تنهار القبة الإسلامية على جميع المسلمين دون استثناء.

الذات والتعايش :

إذا كانت الذوات عند المتصوفة مجرد تعبيرات متعددة لذات الواحد، يكون من اللازم على المريد أو المتعلّم داخل هذه المدرسة معايشة أشكال الارتباط والاتصال، والمدخل الأولي هو الحب أي النظر إلى الآخرين بعين الحب، وليس بعين الحقد، والمريد إذا لم ينظف قلبه من هذه الأدران، فلا موقع له في المدرسة، والفهم الأولي لمسألة الارتباط عند المتصوفة يذهب بالفكر السطحي إلى اعتبار الارتباط ذو طبيعة مادية وعضوية، ولكن يكون بعد الارتباط في عرف المدرسة هو الأخلاق فقط، ففلسفة الانفصال الذي تعايشه الذوات الإنسانية لا تقدم إلا العداوة، العداوة التي تؤدي ـــ على حد تعبير ولتر ستيس ـــ إلى حرب الكل ضد الكل..فالمقابل الانفعالي في وعي الصوفي هو الحب والحب بناء على هذه النظرية الأساس الوحيد والوصية الوحيدة للأخلاق.[20]

الأصل في السلم يبدأ من الذات، وليس من الجماعة، حيث يكون إصلاح الذات من الأدران، والمتصوِّفة اتجاه فكري وتربوي يملك الكثير من المشروعية، والمصداقية في رؤيته لنظرية السلم، في مقابل المدارس التي يطغى عليها البعد التكفيري، واستقراء تاريخ الطرق الصوفية يؤكّد ذلك، إذ لم يشهد التاريخ يوما اعتداء الصوفية على غيرهم من الفرق الأخرى ، بل كان الصوفية هم محل الاعتداء، وإذا أردنا إجراء مقارنة بسيطة بين المدارس الإسلامية من حيث خطورة النتائج على المجتمع الإسلامي والدولي، لوجدنا آثار الطرق

الصوفية أقل خطرا من المدارس التكفيرية، التي لا يجد السلم فيها مناخاً يستقر فيه، كما ينبغي الإشارة إلى أن كل المدارس التكفيرية وللأسف التي تنسب إلى الإسلام، وهو منها براء ليست إلا مجرد أدوات بيد الامبريالية الأمريكية واللوبي الصهيوني، في تحطيم الأمة العربية والإسلامية، وعليه نجد من الضروري مراجعة الأفكار الجديدة حول الإسلام، وحول اتجاهاته، بشكل عام وحول التصوف بشكل خاص، وأجد أن الموقف من التصوف داخل المجتمع العربي والإسلامي والذي ينظر إليه بعين الابتداع، ويتهم المدرسة بالتواطؤ والنفاق السياسي على قاعدة المسالمة أو المصالحة بينها وبين السلطة يستمد مرجعيته من الإسلام الأمريكي، الإسلام الذي يحتفظ فيه المسلمين بأجورهم على الاجتهادات في بنوك أمريكا، وليس في عالم الملكوت، والذي لم يعد الوعد الإلهي بالنسبة إليهم إلا مجرد خرافة، والجنة الحقيقية هي أمريكا، أما الجنة عند المتصوفة فهي ذلك العالم الملكوتي الذي يبدأ بالحب، وينتهي بالحب.

الاكتمال إذن مطلب موضوعي يسعى الفرد الى بلوغه، فالتجربة الفردية ليست تراكمات وتكديس للخبرات، بل هي مقدمات أولية للارتقاء، ولبلوغ المراتب العليا في مقام الانسانية، فحيازة الحيثية العلمائية لا يؤهل العالم للحصول على مقام الانسانية بالضرورة، فمن السهل أنت تكون أن عالما، وليس من السهل أن تصبح إنسانا، فالسير نحو الأفق الإنساني المفروض بلوغه يقتضي منا التقيّد بضوابط، ومداخل معرفية وسلوكية.

السعادة في الحب وبالحب، ومذاهب التنظير للسعادة مجرد حبر على ورق، ومرآة عاكسة لثقافات اجتماعية كانت عاجزة في الأصل عن تحقيق أدنى مراتب السعادة، فإرجاع السعادة لأصل واحد، في حد ذاته وقوع في شَرك الفلسفة التي تطمع دوما لإرجاع التعدد الى واحد موحد، فالسعادة ليست في الغريزة أو في المنفعة، أو في العقل، أو في النص النقلي، بل هي لا تخرج عن إطار المحبة، فالحب كحالة نفسية، وتجربة وجدانية مطلب، وسبيل لبلوغ المطلب أيضا، فاستشارة المرء لروحه، ولطبيعته الأصلية التي كانت قبل التثقيف تضعه في خط المحبة، ويبلغ بذلك السعادة والطمأنينة، ولكن التجليات الإنسانية للحب تفقده رونقه، وبهاءه، خصوصا إذا استقر في حالته الأولية التي هي حب الذات، وإن كانت بالأصل هي المحرك الأولي للإنسان، فحبه، وتعلقه بنفسه، على المستوى الطبيعي- وليس في المقابل المرضي- أساس كل حلجة وميل نحو السيرورة، فنحن بطبيعتنا نميل الى الاستقرار، والى بلوغ السعادة، والطمأنينة، فلولا العلاقة القائمة بيننا وبين ذواتنا لما توجهنا لطلب الكمال والاكتمال، والآخر شرط انطولوجي لتحقيق الذات لذاتها، فالآخر ليس جحيما - كما علمنا الغرب – بل هو شرط رئيس في اكتمال الوجود، والتعايش مع الآخر يبدأ من العلاقة بين الانسان وذاته، وليس من الآخر لذاته، فمعرفتنا لأنفسنا تمكننا من معرفة الآخرين، والقبول بهم كمكون للنحن وللأنا.

الهوامش:

[1] ابو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال (مع ابحاث حول التصوف) دار الكتب الحديثة ، القاهرة ط/6 .1968 .ص : 160

[2] عيد الدرويش ، فلسفة التصوف في الأديان ، دار الفرقد ، سوريه الطبعة الاولى 2006 ص : 146

[3] جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982 ص : 282 (د.ط)

[4] المنقذ من الضلال ، مرجع سابق ص : 168

[5] عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، تحقيق انس مهرة، دارالكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الثالثة 2006 ص 189

[6] سورة الحج ، الآية 65

[7] مرتضى مطهري ، الفطرة ، ترجمة جعفر الخليلي ، مؤسة البعثة ، بيروت ، ط/2 .1992 ص: 23

[8] احمد النقشبندي ، شرح الحكم الغوثية ، تحقيق احمد المزيدي ، دار الافاق العربية ، القاهرة ص : 132

[9] ولتر ستيس، التصوف والفلسفة ، ترجمة امام عبد الفتاح امام ، مكتبة مدبولي ، القاهرة 1999 ص 87

[10] سورة الذاريات الآية : 56

[11] يوسف النبهاني ، جامع كرامات الاولياء ج1 دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الاولى 1996 ص 86

[12] ابن عربي ، التدبيرات الإلهية، دار الكتب العلمية ، بيروت . الطبعة الثانية 2003 ص:23

[13] سليمان سليم علم الدين، التصوف الاسلامي، دار نوفل لبنان الطبعة الاولى 1999 ص 126

[14] عبد القادر الجيلاني، مصدر سابق ص 166

15 صلاح العقبي ، الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، دار البراق، بيروت 2002 ص 63 (د.ط)

[16] الاستاذ فيدوح اكاديمي جزائري ، ومؤسس المدرسة النقدية الجديدة في الجزائر، وله مؤلفات عديدها ومنها معارج المعنى في الشعر العربي الحديث، آخر أعماله

[17] عبد القادر فيدوح ، معارج المعنى في الشعر العربي الحديث، دار صفحات للدراسات والنشر . سورية 2012 ص : 124

[18] البقرة الآية 208

[19] سورة ال عمران الاية 103

[20] ولتر ستيس ، التصوف والفلسفة، مرجع سابق ص 391